المَبحث الرابع

نقد دعاوي المُعارضات الفكريَّة المُعاصرة لأحاديثِ الإسراءِ والمِعراجِ

المَطلب الأوَّل

سَوْق أحاديثِ الإسراءِ والمِعراجِ

عن أنس بن مالك ﷺ، عن مالك بن صعصعة ﷺ، أنَّ نبي الله ﷺ حدَّثهم عن ليلة أُسري به: «**بينما أنا في الحَطيم**[١] -وربما قال: **في الحِجْرِ**[٢]- **مضطجعًا، إذْ أتاني آتٍ فَقَدَّ** -قال[٣]: وسمعته يقول: **فشقَّ ما بين هذه إلىٰ هذه** -فقلتُ للجارود[٤] وهو إلىٰ جنبي: ما يعني به؟ قالَ: مِن ثُغْرَةِ[٥] نحرهِ إلىٰ شِعْرَتِهِ[٦]، وسمعتُه يقول: من قَصِّهِ[٧] إلىٰ شِعْرَتِهِ- **فاستخرجَ قلبي، ثمَّ أُتيت بطستٍ من ذهب مملوءةٍ إيمانًا، فغسل قلبي، ثمَّ حُشي، ثمَّ أعيد، ثمَّ أُتيت بدابَّة دون البغل وفوق الحمار أبيض** -فقال له الجارود: هو البُراق يا أبا حمزة؟ قال أنس: نعم- **يَضَعُ خَطْوَهُ عِندَ أَقصىٰ طَرْفِهِ، فَحُمِلتُ عليه.**

---

(١) **الحطيم**: الحِجر، انظر: «فتح الباري» لابن حجر (٧/ ٢٠٤).

(٢) قال ابن حجر: الشكُّ من قتادة، «الفتح» (٧/ ٢٥٥).

(٣) القائل قتادة، والمقول عنه أنس ﷺ، انظر «الفتح» (٧/ ٢٥٦).

(٤) الجارود قال عنه ابن حجر: لم أر من نسبه من الرُّواة ولعلَّه ابن أبي سبرة البصري صاحب أنس، فقد أخرج له أبو داود من روايته عن أنس حديثًا غير هذا» المصدر السَّابق.

(٥) **من ثُغرته**: الموضع المنخفض الَّذي بين الترقوَّتين، المصدر السَّابق.

(٦) **شِعْرته**: أي شعر العانة، المصدر السَّابق.

(٧) **من قَصِّه**: أي رأس صدره، المصدر السَّابق.

فانطلقَ بي جبريلُ حتَّىٰ أتىٰ السَّماء الدُّنيا فَاسْتَفْتَحَ، فقيل: مَنْ هَذا؟ قال جبريل، قيل: ومَن مَعك؟ قال: مُحَمَّدٌ، قِيل: وقَدْ أُرسِلَ إليه[1]؟ قال: نعم، قيل: مرحبًا به، فنِعمَ المجيءُ جاء، فَفَتَح، فَلمَّا خَلَصْتُ، فإذا فيها آدم، فقال: هذا أبوك آدمُ فَسَلِّمْ عليه، فَسَلَّمْتُ عليه، فَرَدَّ السَّلامَ، ثُمَّ قال: مرحبًا بالابنِ الصَّالح، والنَّبي الصَّالح.

ثُمَّ صَعَدَ، حَتَّىٰ أَتىٰ السَّماء الثَّانية، فَاسْتَفْتَحَ، قِيل مَن هذا؟ قال: جبريلُ، قِيل: ومَن مَعَكَ؟ قال: مُحَمَّدٌ، قيل: وقَد أُرْسِلَ إليهِ؟ قال: نعم، قِيل: مرحبًا به، فَنِعْمَ المَجِيءُ جاءَ، فَفَتَحَ، فَلمَّا خَلَصْتُ، إذا يَحْيَىٰ وعِيسىٰ، وهما ابْنَا الخالة، قَال: هذا يحيىٰ وعيسىٰ، فَسَلِّم عَليهِما، فَسَلَّمْتُ، فَرَدَّا، ثُمَّ قالا: مرحبًا بالأخِ الصَّالِحِ، والنَّبيِّ الصَّالِحِ.

ثمَّ صَعِدَ بي إلىٰ السَّماء الثَّالثة فاسْتَفْتحَ، قِيلَ: مَن هذا؟ قال: جبريلُ، قيل: ومَن مَعك؟ قال: مُحمَّدٌ، قيل: وقد أُرسل إليه؟ قال: نعم، قيل: مَرحبًا به، فنعم المجيء جاء، فَفُتِحَ، فَلما خَلَصْتُ، إذا يوسفُ، قَال: هذا يُوسُفُ، فَسلِّمْ عليه، فَسَلَّمتُ عليه، فَرَدَّ، ثمَّ قال: مرحبًا بالأخِ الصَّالحِ، والنَّبيِّ الصَّالحِ.

ثُمَّ صَعِدَ بي، حَتَّىٰ أَتىٰ السَّماءَ الرَّابعةَ، فَاسْتَفْتَحَ، قيل: مَن هذا؟ قال: جبريلُ، قيل: ومَن معك؟ قال: مُحَمَّدٌ، قِيل: أَوَ قد أرسل إليه؟ قال: نعم، قيل: مَرْحَبًا به، فنِعمَ المجيءُ جاءَ، فَفُتِح، فلمَّا خَلَصْتُ إلىٰ إدريس، قال: هذا إدريسُ فَسلِّم عليه، فَسَلَّمتُ عليه، فَرَدَّ، ثُمَّ قال: مَرْحَبًا بالأخِ الصَّالحِ، والنَّبيِّ الصالح.

ثُمَّ صَعِدَ بي، حتَّىٰ أتىٰ السَّماءَ الخامسةَ، فاسْتَفْتَحَ، قيل: مَن هذا؟ قال: جبريل، قيل: ومَن مَعَك؟ قال: مُحمَّد، قيل: وقد أرسل إليه؟ قال: نعم، قيل: مَرْحبًا به، فَنِعمَ المجيءُ جاءَ، فلمَّا خَلَصْتُ، فإذا هارون، قال: هذا هارونُ فَسَلِّم علي، فَسَلَّمْتُ عليه، فَرَدَّ، ثُمَّ قال: مَرحبًا بالأخِ الصَّالحِ، والنَّبيِّ الصَّالحِ.

---

(١) أي للعروجِ، وليس المراد أصل البعث؛ لأنَّ ذلك كان مُشتهرًا في الملكوت الأعلىٰ، المصدر السَّابق (٧/ ٢٦٢).

ثُمَّ صَعِدَ بي، حتَّىٰ أتىٰ السَّماء، فَاسْتفتحَ، قيل: مَن هذا؟ قال: جبريلُ، قيل: مَن مَعَكَ؟ قال: مُحمَّدٌ، قيل: وقد أُرسل إليه؟ قال: نعم، قال: مرحبًا به، فَنِعمَ المجيءُ جاءَ. فلما خَلَصْتُ، فإذا موسىٰ، قال: هذا مُوسَىٰ فَسَلِّم عليه، فَسلَّمْتُ عليه، فَرَدَّ، ثُمَّ قال: مرحبًا بالأخِ الصَّالِحِ، والنبيِّ الصَّالحِ، فَلمَّا تجاوزتُ بَكَىٰ، قيل له: ما يُبْكِيك؟ قال: أَبكي لأنَّ غُلامًا بُعثَ بَعْدِي يدخلُ الجَنَّةَ من أُمَّته أكثرُ مِمَّن يَدْخُلُها من أُمَّتي.

ثُمَّ صَعد بي إلىٰ السَّماء السَّابعةَ فاستفتح جبريل، قيل: من هذا؟ قال: جبريلُ، قيل: ومن معك؟ قال: مُحَمَّدٌ، قيل: وقد بُعِثَ إليه؟ قال: نعم، قال: مَرحبًا به، فَنِعمَ المَجيءُ جاءَ، فَلمَّا خَلصْتُ فإذا إبراهيمُ، قال: هذا أبوكَ فَسلِّم عليه، قال: فَسَلَّمتُ عليه، فَرَدَّ السَّلام، قال: مَرحبًا بالابنِ الصَّالح، والنَّبيِّ الصَّالحِ، ثُمَّ رُفِعَتْ لي سِدْرَةُ المُنْتَهىٰ. فإذا نَبِقُها[1] مثلُ قِلالِ هَجَرَ[2]، وإذا ورقها مثل آذان الفِيَلة، قال: هذه سِدرة المُنْتهىٰ، وإذا أربعةُ أنهارٍ نهرانِ باطنانِ، ونَهرانِ ظَاهرانِ، فقلتُ ما هذان يا جبريل؟ قال: أَمَّا الباطنان فنهران في الجنَّة، وأمَّا الظَّاهران: فالنِّيلُ والفُراتُ، ثُمَّ رُفِعَ لي البيتُ المَعمورُ، يدخله كلَّ يومٍ سبعون ألف مَلَك، ثُمَّ أُتيتُ بإناءٍ مِن خمر، وإناء مِن لَبَنٍ، وإناءٍ مِن عَسَل؛ فأخذتُ اللَّبنَ، فقال: هي الفِطرةُ الَّتي أنتَ عليها وأمَّتك.

ثُمَّ فُرضتْ عليَّ الصَّلواتُ خمسينَ صلاةً كلَّ يوم، فَرجعتُ فَمررتُ علىٰ مُوسىٰ، فقال: بِمَ أُمرتَ؟ قال: أُمرتُ بخمسين صلاةً كلَّ يوم، قال: أمَّتُك لا تستطيع خمسينَ صلاةً كُلَّ يومٍ، وإنِّي -والله- قد جرَّبتُ النَّاس قبلَك، وعَالجْتُ بني إسرائيل أَشَدَّ المعالجةِ، فارْجِعْ إلىٰ ربِّك فاسْأَلْهُ التَّخفيفَ لأُمَّتِك، فرجعتُ، فوضعَ عَنِّي عَشْرًا، فرجعتُ إلىٰ مُوسىٰ فقال مثله، فرجعتُ فَوضَعَ عَنِّي

---

(١) النَّبِقُ: ثمر السِّدر، واحدته: نَبِقة ونَبْقَة، انظر «النهاية» لابن الأثير(٥/ ١٠).

(٢) قِلال هجر: القلال جمع قُلَّة: وهي الجرَّة العظيمة، وهَجَر: قرية قريبة من المدينة، وليست هجر البحرين، المصدر السابق (٤/ ١٠٤).

عَشْرًا، فَرجعتُ إلىٰ مُوسىٰ فقال مثلَهُ، فرجعتُ فوضعَ عنِّي عَشْرًا، فرجعتُ إلىٰ موسىٰ فقال مثلَهُ، فرجعتُ فَأُمرتُ بعشر صلواتٍ كلَّ يوم، فَرجعتُ فقال مثلَهُ، فرجعت فأُمِرتُ بخمسِ صَلَواتٍ كلَّ يوم، فرجعت إلىٰ موسىٰ فقال: بمَ أُمرتَ؟ قلتُ: أُمرتُ بخمسِ صلواتٍ كلَّ يوم، قال: إنَّ أُمَّتَك لا تستطيعُ خمسَ صلواتٍ كلَّ يوم، وإنِّي قد جرَّبتُ النَّاسَ قبلك وعالجتُ بني إسرائيلَ أشدَّ المعالجة، فارجع إلىٰ ربِّك فاسأله التَّخفيف لأمَّتك، قال: سألتُ ربِّي حتَّىٰ استحييتُ، ولكن أرضىٰ وأُسَلِّم، قال: فَلمَّا جاوزتُ نَادَىٰ مُنادٍ: أَمْضيتُ فريضتي، وخَفَّفْتُ عن عبادي» متَّفق عليه(١).

وعن أنس قال: كان أبو ذر ﷺ يُحدِّثُ أَنَّ رسولَ الله ﷺ قال: «فُرِجَ سَقْفُ بيتي وأنا بمكَّةَ، فنزلَ جبريلُ، فَفَرَجَ صدري، ثُمَّ غَسَلَهُ بماءِ زَمْزَم، ثُمَّ جاءَ بطست من ذهبٍ مُمتلئٍ حكمةً وإيمانًا، فأفرغَها في صدري، ثُمَّ أَطبَقه، ثُمَّ أَخذَ بيدي فَعَرَجَ بي إلىٰ السَّماءِ، فَلمَّا جاء إلىٰ السَّماء الدُّنيا، قال جبريل لخازن السَّماء: اِفتح، قال: مَن هذا؟ قال: هذا جبريل، قال: معك أحدٌ، قال: معي مُحَمَّدٌ، قال: أُرْسِلَ إليه؟ قال: نعم، فَافْتَح، فلمَّا عَلَونا إلىٰ السَّماء إذا رَجُلٌ عن يمينه أَسْوِدَةٌ(٢)، وعن يَساره أَسودة، فإذا نَظَرَ قِبَلَ يَمِينِهِ ضَحك، وإذا نَظَرَ قِبل شماله بكىٰ، فقال: مَرحَبًا بالنَّبيِّ الصَّالحِ، والابنِ الصَّالحِ، قلتُ: مَن هذا يا جبريل؟ قال: هذا آدم، وهذه الأَسْودةُ عن يمينه وعن شماله نَسَم بَنِيهِ(٣)، فَأَهْلُ اليمينِ مِنهمْ أَهْلُ الجنَّةِ، والأَسْوِدة الَّتي عن شماله أَهل النَّارِ، فإذا نَظر قِبَل يَمِينِهِ ضَحِكَ، وإذا نَظَر قِبل شماله بكىٰ. .» الحديث.

---

(١) أخرجه البخاري في (ك: مناقب الأنصار، باب: المعراج، رقم: ٣٨٨٧)، ومسلم في (ك: الإيمان، باب: الإسراء برسول الله ﷺ، رقم: ١٦٤).

(٢) أَسْوِدة: جمع سواد، كسنام وأسنمة، وفسر الأسودة في الحديث بأنَّها نَسَم بنيه، وتجمع الأسودة علىٰ أساود، والسواد: الشخص، وقيل السواد: الجماعات، انظر «شرح صحيح مسلم» للنووي (٢/ ٢١٨).

(٣) نَسَم بنيه: الواحدة نسمة، وهي نفس الإنسان، والمراد: أرواح بنىٰ آدم، المصدر السَّابق.

قال: وأخبرني ابن حزم[1]، أنَّ ابن عباس ﷺ وأبا حَبَّةَ الأَنْصَاري ﷺ، كانا يقولانِ: قال النَّبيُّ ﷺ: **«ثمَّ عُرِجَ بي حتَّىٰ ظَهَرتُ لِمُستوًى أَسمَعُ صَرِيفَ الأَقْلامِ»**[2].

وعن ابن حزم وأنس بن مالك ﷺ: أنَّ النَّبي ﷺ قال: **«.. ثُمَّ انْطَلَقَ، حتَّىٰ أتىٰ بي السِّدرةَ المُنْتهىٰ، فَغَشِيها ألوانٌ لا أدري ما هيَ! ثمَّ أُدْخِلتُ الجنَّةَ، فإذا فيها جَنابِذُ اللُّؤلؤِ[3]، وإذا تُرابُها المِسْكُ»** متَّفق عليه[4].

وعن ثابت البُناني، عن أنس بن مالك ﷺ؛ أنَّ رسول الله ﷺ قال: **«أُتِيتُ بالبُراقِ، وهو دابَّة أَبيض طويل، فَوْق الحِمار، ودون البغل، يضع حافِره عندَ مُنْتهىٰ طَرْفِهِ، قال: فركِبْتُه، حتَّىٰ أَتيتُ بيْتَ المَقْدِسِ، قال: فَرَبطْتُهُ بالحَلْقَةِ، الَّتي يَربِطُ به الأنبياءُ، قال: ثُمَّ دَخَلتُ، فَصَلَّيتُ ركعتين، ثُمَّ خرجتُ، فجاءني جِبريل ﷺ بإناءٍ من خَمْر، وإناءٍ من لَبَنٍ، فاخترتُ اللَّبن، فقال جبريلُ ﷺ: اخْتَرتَ الفِطْرةَ[5]، ثُمَّ عُرج بنا إلىٰ السَّماء»** أخرجه مُسلم[6].

---

(١) قال ابن رجب: «الظاهر أنَّه أبو بكر بن محمد بن عمرو بن حزم»، «فتح الباري» له (٣١٨/٢).

(٢) **صريف الأقلام**: صوت ما تكتبه الملائكة بأقلامها من أقضية الله تعالىٰ ووحيه، أو ما ينسخونه من اللَّوح المحفوظ، أو ما شاء الله من ذلك، انظر «فتح الباري» لابن رجب (٣١٨/٢).

(٣) **جنابذ اللُّؤلؤ**: جمع جُنْبُذة: وهي القُبَّة، انظر «النهاية» (٣٣٣/١).

(٤) أخرجه البخاري في (ك: أخبار الأنبياء، باب: ذكر إدريس . . ، رقم: ٣٣٤٢)، ومسلم في (ك: الإيمان، باب: الإسراء برسول الله ﷺ إلىٰ السموات وفرض الصلوات، رقم:١٦٣).

(٥) فيه أقوال، أوجهها: الإسلام، أو الاستقامة، أو الحنيفيَّة، وهذا هو اختيار القاضي عياض في «إكمال المعلم» (٥٠١/١)، واقتصر عليه النَّووي في «شَرحه لمسلم» (٢١٢/٢).

(٦) أخرجه مسلم في (ك: الإيمان، باب: الإسراء برسول الله ﷺ إلىٰ السموات، رقم: ١٦٢).

المَطلب الثَّاني
سَوْق المُعارضات الفكريَّةِ المُعاصرةِ
لأحاديثِ الإسراءِ والمعراجِ

قد أُورِدَتْ علىٰ حديث الإسراء عِدَّةُ اعتراضات؛ تختلف باختلاف مَشارِب المُورِدين، ومُحصَّل هذه الشُّبهات يؤول إلىٰ ثلاثٍ:

المعارضة الأولىٰ: أنَّه مِن المقرَّر فلكيًّا: أنَّ الهواء يُفقَد بعد أميالٍ فوق الأرض؛ وعلىٰ هذا فلا يتأتَّىٰ العيشُ لأحدٍ بعد انقطاع الهواء، وهذا الاعتراض نقله عبد الله القَصيمي عن بعضِ المُعاصرين، قالوا: «.. فلو كان رسول الله ﷺ عُرِج به إلىٰ ما فوق الهواء، لَما أمكنَ أن يَبْقىٰ حَيًّا»[1].

المعارضة الثَّانية: أنَّ إثباتَ الحديث يَلزم منه إضافة الجهل لله تعالىٰ؛ ذلك أنَّه جاء في الحديث: أنَّ الله بعد أن فَرَض علىٰ نبيِّه ﷺ خمسين صلاةً، لم يَفقهْ استحالةَ أدائها علىٰ البَشَر إلَّا موسىٰ عليه السلام، وكأنَّ الله لا يَعلمُ بقُدرة عبادِه، ومَدىٰ تحمُّلِهم!

وفي تقريرِ هذه الشُّبهة، يقول (محمود أبو ريَّة):

«في حديث المعراج أنَّه: لمَّا فَرَض الله خمسين صلاةً علىٰ العباد في النَّهار وفي اللَّيل، لم يستطِع أحدٌ من الرُّسل جميعًا غير موسىٰ أن يفقه استحالة أدائها

---

(1) «مشكلات الأحاديث النبوية» للقصيمي (ص/١٢٢).

علىٰ البشر!..وكأنَّ الله ﷻ لمَّا فَرَض الصَّلاة علىٰ المسلمين، كان لا يعلم مَبلغ قوَّة احتمال عباده علىٰ أدائها -تعالىٰ الله عن ذلك علوًّا كبيرًا- وكذلك لا يعلم محمَّد الَّذي اصطفاه للرِّسالة العامَّة إلىٰ النَّاس كافَّة..لا يعلم إنْ كان مَن أُرسِل إليهم يستطيعون احتمال هذه العبادة أو لا يستطيعون، حتَّىٰ بصَّره موسىٰ! وهكذا ترىٰ الإسرائيليَّات تنفذ إلىٰ ديننا، وتسري في معتقداتنا، فتعمل عملها، ولا تجد أحدًا إلَّا قليلًا يزيِّفها أو يردُّها»(١).

المعارضة الثَّالثة: أنَّ في خبر عُروجِه ﷺ ما هو مخالِفٌ لمقتضىٰ الضَّرورة العقليَّة؛ إذ كيف يصلِّي بالأنبياء في بيت المقدس، ويكونون في الوقتِ نفسِه في السَّماء، ويكون أيضًا موسىٰ ﷺ يصلِّي في قبره، كما ورد بذلك الحديث في «صحيح مسلم»؟!(٢).

---

(١) «أضواء علىٰ السنة المحمدية» (ص/١٣٥)، وقد تكرر إيراد هذه الشبهة علىٰ حديث المعراج كثيرًا في كتب الطاعنين المعاصرين، منها: «الحديث والقرآن» لابن قرناس (ص/٤٢٧-٤٣٠)، و«دين السلطان» (ص/٣٧٤)، و«جناية البخاري» لأوزون (ص/١٤٣)، «البخاري وصحيحه» للهرساوي الإمامي (ص/٤٠).

(٢) انظر «مشكلات الأحاديث النبوية» للقصيمي (ص/١٢١-١٢١)، والحديث الذي في مسلم أخرجه في (ك: الفضائل، باب: فضائل موسىٰ ﷺ، رقم: ٢٣٧٥) أنَّ النَّبي ﷺ قال: «مررتُ علىٰ موسىٰ ليلة أُسري بي عند الكثيب الأحمر، وهو قائم يصلِّي في قبره».

المَطلب الثَّالث

دَفعُ دعاوى المعارضاتِ الفكريَّةِ المُعاصرةِ عن أحاديثِ الإسراءِ والمعراج

مُحصَّل ما مرَّ مِن الشُّبهاتِ آيلٌ إلىٰ إحالةِ هؤلاء المُعترضين لما تضمَّنه الحديث، ومَناطُ إحالتِهم: خروجُ حادثة «الإسراء والمعراج» عن مقتضىٰ العادة، وعدم مباشرة الحسِّ لها، فالتبس عليهم الأمرُ، فظنُّوا أنَّ ذلك يستوجبُ إحالة العقل لهذا الحديث، فلا يمكن علىٰ مقتضىٰ ذلك التَّسليمُ بهذه الآية الَّتي أكرم الله ﷻ نبيَّه ﷺ بها.

فزلَّتْ بهم أقدامُهم إلىٰ ردِّ الحديث، وتطلُّبُ العِلَل الواهية الَّتي لا تقوىٰ علىٰ إبطال حقيقة ما دلَّت عليه هذه الآية العظيمة.

ومَن ألطَفَ النَّظرَ فيما انطوت عليه بعض هذه الطُّعون، تحصَّل لديه أنَّها لا تصدُر إلَّا مِمَّن يَشكُّ في قدرة الخالق ﷻ علىٰ خَرْقِ سُنن الكون، لا ممَّن يؤمن بالله تعالىٰ، وبكمال قُدرته(١).

وقبل إيراد المعارضات العقليَّة المعاصرة، وإسلافِ جواباتِ أهلِ العلمِ عن آحاد هذه الاعتراضات علىٰ الحديث؛ فإنَّه يَتعيَّن الإشارة إلىٰ مَلحظ مهمٍّ:

وهو انعقاد إجماع الأمَّة علىٰ وقوع الإسراء والمعراج، وأنَّ هذه الحادثة مِن البراهين والآيات الدالَّة علىٰ نبوَّة محمَّد ﷺ؛ لذلك ترىٰ مدىٰ احتفالِ أهلِ

---

(١) انظر «دفع دعوىٰ المعارض العقلي» (ص/ ٣٧٧).

السِّيَر والحديث واحتفائِهم بهذه الحادثة، وعقْدهم المصنَّفات في بيانها، والتماس العِبَر منها، ونظْمها في دلائلِ النبوَّة[1]، وما ذاك إلَّا لكونها -كما أسلفتُ- مِن الدَّلائل العظيمة الَّتي أكرمَ اللهُ بها نبيَّه ﷺ.

وممَّن نقل الاتِّفاق علىٰ ذلك: القاضي عياض السَّبتي، حيث قال: «لا خلاف بين المسلمين في صحَّة الإسراء به ﷺ..»[2]، وأبو الخطَّاب ابن دِحية[3]، حيث قال: «حديثُ الإسراء أجمع عليه المسلمون، واعترض فيه الزَّنادقة المُلحِدون..»[4].

ومُرتكز هذا الإجماع: القرآن والسُّنة، فقد نَصَّ الله سبحانه علىٰ الإسراء في موضعين من كتابه العزيز:

أولاهما: قوله ﷻ: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَا الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الإسراء: ١].

فقد أخبر المولىٰ أنَّه أسرَىٰ بعبدِه، والعَبد مجموعُ الرُّوحِ والجَسد، ولم يُخبر أنَّه أسرىٰ بروحِه فقط، كما غَلِط في تأويلِه قِلَّةٌ مِن أهلِ العلم[5]، ولذا نراه

---

(١) من تلك الأسفار التي خَصَّتْ هذه الحادثة بمزيد عناية: «الآيات العظيمة الباهرة في معراج سيد أهل الدنيا والآخرة» لشمس الدين محمد بن يوسف الشامي، وله عدَّة مصنفات في هذه الحادثة كلُّها مخطوطة، و«السراج الوهاج في ازدواج المعراج» لابن ناصر الدين الدمشقي، و«رسالة في المعراج» لأبي الحسن علي بن محمد اللخمي، و«الإسراء» لعبد الغني المقدسي، و«نور المسرىٰ في تفسير آية الإسرا» لأبي شامة المقدسي، و«الآية الكبرىٰ في شرح قصة الإسرا» لجلال الدين السيوطي، و«الإسراء والمعراج» للقاسمي، و«الإسراء والمعراج» لمحمد ناصر الدين الألباني، وغيرها كثير بين مطبوع ومخطوط، تجدها مسرودةً في «معجم الموضوعات المطروقة في التأليف الإسلامي» لعبد الله الحبشي (١/ ٩٣-٩٦).

(٢) «الشفا» (١/ ١٧٧).

(٣) أبو الخطاب عمر بن الحسين بن دحية الكلبي (ت٦٣٣ هـ): المعروف بـ «ذي النَّسبين» الأندلسيُّ السَّبتي، أحد الحُفَّاظ، من أعيان أهل العلم وفقه مالك، متقنا لعلم الحديث النبوي وما يتعلق به، عارفًا بالنحو واللُّغة وأيام العرب وأشعارها، من مصنفاته «المطرب من أشعار أهل المغرب»، و«عَلم النصر المبين، في المفاضلة بين أهل صفِّين»، انظر «سير أعلام النبلاء» (٢٢/ ٣٨٩).

(٤) «الابتهاج في أحاديث المعراج» لابن دحية (ص/ ٥٩).

(٥) انظر «زاد المعاد» لابن القيم (٣/ ٣٦)، حيث ردَّ علىٰ هذا القول، مع تنبيهه علىٰ أنهم لم يريدوا به أن الإسراء كان منامًا.

تعالىٰ يُقدِّم التَّسبيحَ قبل سَوْقِ خَبر الإسراءِ، لبَيانِ أنَّ هذا الخبرَ مِن الأمورِ العِظام، فلو كان مَنامًا كما ظَنَّه ابن إسحاقَ[1]، لم يكُن مُستعظَمًا، ولم يكن للتَّسبيح معنىٰ عنده[2]!

فقصْرُ الإسراءِ علىٰ الرُّوح تَعَدٌّ لِما قاله اللهُ إلىٰ غيره، والقولُ به مخالفةٌ لظاهرِ القرآن، وما استفاضت به الأخبار عن رسول الله ﷺ، وما جاءت به الآثار عن الصَّحابة والتَّابعين.

وثانيهما: ما أشار الله تعالىٰ فيه إلىٰ رؤية نبيِّه ﷺ لجبريل علىٰ خلقتِه الأصليَّة حين عُرج به في السَّماء السَّابعة، في قوله: ﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ﴿١٣﴾ عِندَ سِدْرَةِ ٱلْمُنتَهَىٰ ﴿١٤﴾ عِندَهَا جَنَّةُ ٱلْمَأْوَىٰٓ ﴿١٥﴾ إِذْ يَغْشَى ٱلسِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ ﴿١٦﴾ مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ﴿١٧﴾ لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰٓ﴾ [النَّجم: ١٣-١٨].

ولقد تواترَت الأخبار بحادثة الإسراء والمِعراج؛ فمِمَّن نقَلَ هذا التَّواتر:

أبو الخطَّاب ابن دِحية[3]، والزُّرقاني[4]، وابن تيميَّة، حيث قال: «أحاديثُ المِعراج، وصعوده إلىٰ ما فوقَ السَّموات، وفرض الرَّب عليه الصَّلوات الخمس حينئذٍ، ورؤيته لما رآه مِن الآيات، والجنَّة والنَّار، والملائكة والأنبياء في السَّموات، والبيت المعمور، وسِدرة المُنتهىٰ، وغير ذلك: معروفٌ متواترٌ في الأحاديث»[5].

مِمَّا دعا ابنَ جعفر الكتَّاني (ت١٣٤٥هـ) لإيداعها كتابَه «نَظْم المُتَناثر»[6].

(١) انظر «سيرة ابن هشام» (١/٣٩٩)، وقد أجاد ابن جرير في الرَّد عليه في «جامع البيان» (١٤/٤٤٦).
(٢) انظر «تفسير القرآن العظيم» لابن كثير (٥/٤٣).
(٣) «الابتهاج» لابن دحية (ص/٥٩).
(٤) «شرح الزرقاني علىٰ المواهب اللَّدُنيَّة» (٨/١٥).
والزُّرقاني (ت١١٢٢هـ): هو محمَّد بن عبد الباقي الزُّرقاني، أبو عبد الله المالكي، إمام متفنِّن، من مؤلفاته «شرح موطأ مالك»، انظر «شجرة النور الزكية» (١/٤٦٠).
(٥) «الجواب الصحيح» لابن تيميَّة (٦/١٦٨).
(٦) «نظم المتناثر» (ص/٢٠٧).

وبعد تحقيق القولِ في ثبوتِ إجماعِ السَّلفِ علىٰ وقوعِ الإسراء والمعراج بجسده ﷺ، لم يَبْقَ إلَّا قطعُ سُوقِ الشُّبهاتِ بسَيفِ البراهين، فدونك بيانُ ذلك في الأجوبةِ التَّالية.

أمَّا جواب المعارضة الأولىٰ: في دعوىٰ أنَّ الهواءَ يُفقَد بعد أميالٍ فوق الأرض؛ وعلىٰ هذا فلا يتأتَّىٰ العيشُ لأحدٍ بعد انقطاع الهواء:

أنَّ حادثة الإسراء والمعراج وإن جَرىٰ فيها مِمَّا هو خارج عن مَقدور الثَّقلين؛ ليتمَّ بها نَصْبُ الدَّلائل علىٰ نُبوَّته ﷺ: إلَّا أنَّها ليست مُخالفةً لبدائِه العقلِ البتَّة، والعقل لا يَستعصي عليه تَصوُّر ذلك، فمَن خَلَق الإنسان مُفتقرًا إلىٰ الهواء؛ قادرٌ علىٰ أن يجعَلَه مُستغنيًا عنه، وإنَّما لعَدَم مُباشرةِ الحِسِّ لمثلِ ذلك، تراه يُنكر كلَّ ما لا يَقع في دائرةِ إدراكِه، وهذا هو القصور بعينِه.

فالتَّكذيبُ بهذه الأحاديث لكونِها أثبتَت وقوعَ أمرٍ خارقٍ لِما اعتاده البَشَر من مُقوِّماتِ مَعيشتِهم: يؤُول إلىٰ الطَّعنِ في كمالِ قدرةِ الله تعالىٰ والإيمان به؛ فإنَّ مثل هذا الاعتراضِ لا يكاد يصدرُ إلَّا ممَّن لا يؤمن بالله أو ويشكُّ في قدرته ﷻ، فمثل هؤلاء يكون الخطاب معهم في تثبيتِ هذا الأصل، فإذا ثَبت ثبتَ لازمه[1].

أما قول المُعترضِ في الشُّبهة الثَّانية: إنَّ إثباتَ أخبارِ المِعراج يلزم منه تجويزُ الجهل علىٰ الله تعالىٰ -تعالىٰ الله عمَّا يقول الظَّالمون علوًّا كبيرًا- بما هو في مَقدرة عبادِه، وما ليس هو في مقدورهم .. إلخ:

فالجواب عن ذلك أن يُقال:

ليس في الحديث ما يَستلزم ذلك أبدًا؛ فليس في الخمسين صلاةً الَّتي فرضها الله تعالىٰ علىٰ عبده وخليلِه محمَّد ﷺ ما يكون في أدائِها استحالةٌ مِن جِهة تعذُّر قُدرةِ العبادِ علىٰ أدائها.

---

(١) انظر «دفع دعوىٰ المعارض العقلي» (ص/ ٣٨٥).

أمَّا قول موسىٰ عليه السلام في الحديث: «**إنَّ أمَّتَك لا يستطيعون ذلك، فارجعْ إلىٰ ربِّك، فاسأله التَّخفيف لأمَّتك . .**»، فلا يُحقِّق مَطلوبَهم؛ ذلك أنَّ نفْيَ الاستطاعةِ مِن موسىٰ عليه السلام لا يُرادِفُ الاستحالةَ بحالٍ في هذا المقام، وإنَّما مقصوده عليه السلام مَشقَّةُ ذلك علىٰ أمَّة محمَّد ﷺ، برهان ذلك: أنَّه أطلق هذا اللَّفظ؛ حتَّىٰ بعد صَيْرورة الصَّلاةِ مِن خمسين إلىٰ خمس؛ فقال: «إنَّ أمَّتَك لا تستطيع خمسَ صلواتٍ كلَّ يوم»[1]!

يقول المُعَلِّمي: «كانت الصَّلاة قبل الهجرة رَكعتين رَكعتين؛ كما ثَبَت في الصَّحيح[2]، فخمسون صلاةً مائةُ ركعةٍ؛ وليسَ أداءُ مائةِ ركعةٍ في اليومِ واللَّيلة بمستحيل، وفي النَّاس الآن مَن يُصلِّي نحو مائةِ ركعةٍ، ومنهم مَن يزيدُ، وفي تراجم كثير مِن كبار المسلمين: أنَّ منهم مَن كان يصلِّي أكثرَ مِن ذلك بكثيرٍ[3]؛ بل إنَّ أداءَ مائةِ ركعةٍ في اليوم واللَّيلة ليس بعظيمِ المشقَّة في جانب الله ﷻ مِن الحقِّ، وما عنده مِن عظيم الجزاء في الدُّنيا والآخرة . . .

فأمَّا الله تعالىٰ؛ فالفرضُ في علمِه خمسُ صلواتٍ فقط؛ ولكنَّه سبحانه إذا أراد أن يرفعَ بعضَ عباده إلىٰ مرتبةٍ، هَيَّأَ له ما يستحقُّ به المرتبة؛ ومن ذلك: أن يهيِّئ ما يَفهم منه العبدُ أنَّه مُكلَّفٌ بعمل مُعيَّن شاقٍّ، فيقبَل التَّكليف، ويستعدَّ لمحاولةِ الأداء، فحينئذٍ يُعفِيهِ اللهُ تعالىٰ من ذلك العمل، ويكتبُ له جزاءَ قَبوله، ومحاولةِ الوفاء به، أو الاستعدادِ لذلك: ثوابَ مَن عمِلَه، ومِن هذا القبيل قصَّة إبراهيم عليه السلام في ذبحِ ابنه.

وأمَّا محمَّد ﷺ فكان يعلم أنَّ الأداء ممكِنٌ -كما مَرَّ-، وكان في ذلك المقام الكريم مُستغرِقًا في الخضوعِ والتَّسليم، ووَفَّقه الله ﷻ لقبولِ ما فهمه في

---

(١) «دفع دعوىٰ المعارض العقلي» (ص/ ٣٨٥-٣٨٦).

(٢) أخرجه البخاري في (ك: الصلاة، باب: كيف فرضت الصلوات في الإسراء، رقم: ٣٥٠)، ومسلم في (ك: صلاة المسافرين وقصرها، باب: صلاة المسافرين وقصرها، رقم: ٦٨٥).

(٣) كما تراه -مثلًا- في «مناقب الإمام أحمد بن حنبل» لابن الجوزي (ص/ ٣٨٢) بإسناده إلىٰ عبد الله بن أحمد بن حنبل قال: «كان أبي يُصلِّي في كلِّ يوم وليلة ثلاث مئة رَكعة، فلمَّا مَرض من تلك الأسواط أضعفته، فكان يُصلِّي كلَّ يوم وليلة مئة وخمسين ركعة، وقد كان قُرب من الثَّمانين».

فرْضِ خمسين، والاستعدادِ لأدائِها؛ ليكونَ هذا القبول والاستعداد مقتضيًا لاستحقاقِ ما أراد الله ﷻ أن يعطيَه وأمَّتَه مِن ثوابِ خمسين صلاة . . .

فأمَّا المراجعة للتَّخفيف بعد مشورةِ موسىٰ ﵇: فإنَّما كانت بعد أن استقرَّ القَبول والعزمُ علىٰ الأداء، وعلىٰ وجه الرَّجاء؛ إنْ خفَّف به فذاك، وإلَّا فالقبول والاستعداد بحاله.

ولم يُذكَر في الحديث أنَّ أحدًا من الرُّسل اطَّلع علىٰ فرض الصَّلاة، وإنَّما فيه: أنَّه لمَّا مرَّ محمَّد بموسىٰ ﵉ سأله موسىٰ، فأخبره . . واختُصَّ موسىٰ بالعناية؛ لأنَّه أقرب الرُّسل حالًا إلىٰ محمَّد ﷺ؛ لأنَّ كُلًّا منهما رسولٌ مُنزَّلٌ عليه كتابٌ تشريعيٌّ سائسٌ لأمَّة أريد لها البقاء، لا أنْ تُصْطَلَم بالعَذاب»[1].

وبهذا يتقرَّر انتفاءُ هذا اللَّازم عمَّن يُثبِت أخبارَ المعراج؛ إذ لا ريب في شمول علم الله تعالىٰ لأحوال عباده وما يصلحهم، «ولكنَّ الباري ﷻ أراد أن يُظهِر فضيلةَ محمَّد ﷺ في خضوعِه وتسليمِه، وفضيلة موسىٰ ﵇، بأن جعَلَه سَببًا للتَّخفيفِ عن هذه الأمَّة، مع إبرازِ عظيمِ رحمتِه بهذه الأمَّة، ومع ما في هذه المُراجعةِ مِن كريمِ المُناجاة بين الله تعالىٰ ونبيِّه ﷺ»[2].

وأمَّا قول القائلِ في المعارضةِ الثَّالثةِ: أنَّ في ثبوتِ هذا الخَبرِ ما يَستلزم التَّناقضَ؛ إذْ كيف يَرىٰ النَّبيُّ ﷺ الأنبياء في بيت المقدس ويُصلِّي بهم، ثمَّ يكون في الوقتِ ذاتِه في السَّماء؟ وكيف يكون موسىٰ ﵇ في السَّماء السَّادسة، ويراه في الوقتِ نفسِه في قبره يصلِّي؟

فيُقال له: ليس هناك تَناقضٌ إلَّا في ذهنه؛ فإنَّ شرطَ التناقُضِ وَحدةُ الزَّمان؛ وهذا غير مُتحقِّق هنا، ذلك أنَّه ﷺ حينما أُسْرِي به إلىٰ بيتِ المَقدس، أَمَّ الأنبياءَ -عليهم الصَّلاة والسَّلام-، ومِن المَعلوم أنَّ وقتَ صَلاتِه بهم لَم يكُن وقتَ رؤيتِه لهم في السَّماء حينما عُرِج به.

---

(١) «الأنوار الكاشفة» (ص/ ١٢٠-١٢١).

(٢) «دفع دعوىٰ المعارض العقلي» (ص/ ٣٨٧).

وفي بيان انتفاءِ هذا التَّناقض، يقول عَقِيل القُضاعِيُّ المُرَّاكشي (ت٦٠٨هـ)[1] متعقِّبًا الحُميديَّ (ت٤٨٨هـ) في استشكاله ما حَصَل مِن رؤيتِه ﷺ لإخوانِه الأنبياءِ في مَواطِن مختلفة حين قال: «ومِن المحال أن يكونوا في مكانين مختلفين في وقت واحدٍ!»؛ فقال القُضاعِيُّ:

«قولُ الحُميديِّ .. قولٌ صَحيح في نفسِه، مَعلومٌ ببديهةِ العقلِ .. إنَّ كونهم -أي الأنبياء- تلك اللَّيلة في السَّماوات، إنَّما كان بسببِ عروج النَّبي ﷺ إلىٰ السَّماوات، فيكون كونهم هنالك، ككونهم ببيتِ المقدس، وككونِ موسىٰ في قبره يُصلِّي، ثمَّ ينتقلون مِن ذلك الموضع إلىٰ حيثُ شاء الله من الجنَّة، أو من غيرها.

ويجوز أن يكون ذلك مَوضعهم في الغالب، ولا نقول إنَّه مَوضعهم علىٰ الدَّوامِ بسببِ كونهم ببيت المقدس تلك اللَّيلة، وكما جاز في تلك اللَّيلة يجوز في غيرها؛ وعلىٰ الجُملة: فالدُّخول في مثل هذه المَضايقِ لا يَنبغي لعاقِلٍ، فإنَّها مُغيَّبة عنَّا، وإنَّما نتكلَّم فيها بِحَسَبِ ما فهمناه مِن الشَّريعة»[2].

فإن قيل: فكيف لموسىٰ ﷺ أن يصلِّي في قبرِه وهو مَيِّت، وروحه في السَّماء؟

فيُقال: إنَّ لِعالَم الأرواح خصوصيَّةً تختلف عن شأنِ البَدَن، وقد بيَّن ابن تيميَّة جواب هذا السُّؤال في قوله: «وأمَّا كونُه ﷺ رأىٰ موسىٰ ﷺ قائمًا يُصلِّي في قبره، ورآه في السَّماء أيضًا: فلا منافاة بينهما؛ فإنَّ أمرَ الأرواحِ مِن جِنس أمرِ الملائكة، في اللَّحظة الواحدة تصعدُ وتهبِطُ كَالمَلَكِ، ليست في ذلك كالبَدَنِ»[3].

---

(١) عقيل بن عطية القُضاعي الطُّرطوشيُّ ثمَّ المرَّاكشيُّ: حافظ متقن، مُتصرف في فنون من العلم، مع حسن الخطِّ والمشاركة في الأدب، وليَ قضاء غرناطة وسجلماسة، من مصَّفاته: «شرح مقامات الحريري»، و«رد علىٰ ابن عبد البر في بعض تواليفه وتنبيه علىٰ أغلاطه»، انظر «التكملة لكتاب الصلة» لابن الأبَّار (٤/٣٣)، وانظر مُقدِّمة مصطفىٰ باحو لتحقيق كتابه «تحرير المقال».

(٢) «تحرير المقال» لعقيل بن عطية (١/١٠٧-١٠٨).

(٣) «مجموع الفتاوىٰ» (٤/٣٢٩).

وبهذا تنجلي غيوم الشُّبهات عن نور هذه الآية النَّبويَّة الرَّفيعة، والحمد لله علىٰ توفيقه وهدايته.